الكنيسة والكنائس: هواجس رعائيّة

خريستو المر

كلمة كنيسة تعني «الجماعة المقدّسة». عندما خاطب بولس أهل كورنثوس في رسالته الأولى إليهم قال هم «أنتم كنيسة الله» (١: ١) ولم يقل أنّهم جزءاً منها، وكتب «أنتم هيكل الله»(٣: ١٦) و»جسد المسيح» (١٢: ٢٧) وليس جزءاً منه. هذه الرؤية ومؤشّرات كتابيّة وتاريخيّة أُخرى هي التي جعلت الكنيسة الأرثوذكسيّة تعتبر أنّ كلّ جماعة حول أسقف هي ملء الكنيسة وليست جزءا منها، ولنقل أنّها كنيسة محلّية تطوّرت عمليّا حول مدينة. يمكننا بالطبع أن نرى ملء الكنيسة في كلّ كنيسة محلّية وأن نرى كلّ الكنائس المحلّية معا هي كنيسة واحدة في يسوع.

هواجس رعائيّة

اختلفت التفسيرات بين الجماعات المسيحيّة حول طبيعة يسوع، والعلاقة بين الكنائس المحلّية، والمناولة وعمر الطفل عند المعموديّة، وألف أمر آخر. وكلّ طائفة، ترى بلا شكّ، أنّها حاملة للإيمان الصحيح ومفسّرة له بالشكل الأصحّ ولولا ذلك لتبع أعضاؤها كنيسة أخرى. ويمكن للعقلاء من كلّ طائفة أن يوازنوا بين اعتقادهم بصحّة عقائدهم وبين الحوار مع عقلاء الطوائف الأخرى وهو ما يفعله لاهوتيّون من كنائس مختلفة كمجموعة القدّيس إيريناوس التي ترعى حوارًا بين لاهوتيّين من الكنيستين الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة، أو الحوار الذي قام بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنيسة اللوثريّة. بالطبع، تبقى هذه الحوارات محصورة في مواضيع محدّدة وتتحرّك ببطء لا بدّ منه ليكون الحوار عميقًا صادقًا ذا قيمة، ونفعها لن يمكن ملاحظته إلّا عندما تتبنّى الكنائس رسميًّا نتائج تلك الحوارات.

بالنسبة للناس في حياتهم اليوميّة، هناك أمور حياتيّة أساس تنقص بشكل فادح: وجود احتفالين لعيد الفصح أمر جدّ محزن ولا عذر للكنائس بعدم توحيد عيد الفصح، ليس للقول بأنّ الكنائس واحدة، ولكن لكي لأسباب رعائيّة إذ أنّ العائلات المكوّنة من زوجين من كنيستين واحدة شرقيّة والأخرى غربيّة إن تمسّكا بتقليديهما (وعادة ما يفعل الإنسان ذلك على الأقلّ بسبب العادة)، سيضطرّان للاحتفال مرّتين، ولا ندري ما هو أثر هذا الانقسام على الأطفال (لسنا على علم بكنيسة تهتمّ بدراسة هذا الموضوع). المناولة الممنوعة بين الكنائس، أيضا مفهوم عقائديّا، إذ أنّ المناولة هي تعبير عن وحدة إيمان، وفي غياب وحدة بين الكنائس وغياب أيّ توجّه رعائيّ يسمح بالمناولة لمثل تلك الحالات سيبقى الكهنة يقرّرون ما يرتؤونه الأفضل وهو ما يؤدّي في حالات كثيرة إلى توقّف العائلة عن ارتياد إحدى الكنيستين والالتزام حصرا بكنيسة واحدة ولا شكّ أنّ هذا هو الحلّ الأفضل عند مَن يرون في منع المناولة لأحد الزوجين أمرا لا يُحتمَل.

الكنائس والخدمة المشتركة

إنّ خدمة المهمّشين كانت مترابطة عضويّاً مع مفهوم المسيحيّين لذاتهم كجسد للمسيح، كوحدة محبّة. الإيمان مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمحبّة، وهذا ما تعكسه الليتورجيا (الصلوات) في القدّاس الإلهيّ الأرثوذكسيّ حيث قبل يقول الكاهن «فلنحبّ بعضنا بعضاً لكي بعزم واحد نعترف مقرّين» مباشرة قبل تلاوة دستور الإيمان «أومن بإله واحد...». وهذا رابط مباشر فهمته الكنيسة بين إمكانيّة الإيمان وبين المحبّة، لا يمكننا أن نقول أنّنا نؤمن إن لم نكن نحبّ بعضنا البعض. هذا الإيمان أوجد تعبيراً لنفسه في الجماعات المسيحيّة الأولى التي كانت تجتمع لكسر الخبز وكان في نفس الوقت عندهم « كل شيء مشتركا» (أعمال ٢: ٤٢ و ٤٤).

في أيّامنا، يثلج القلب التعاون بين الكنائس الشقيقة لخدمة الهمّشين خلال الأزمات العاصفة والحروب التي لم

تنته في منطقتنا التي يعيش أهلها بين سندان ديكتاتوريّيها ومستغلّيها ومطرقة الاستعمار الجديد. هذا التعاون في خدمة الهمّشين شهادة بحدّ ذاته في عالم يتفسّخ.
الأمر الآخر الذي نودّ لو كان موجودا بشكل ممنهج هو تعاون الكنائس في منطقتنا لضغط على الكنائس في أوروبا والأميركيّتين لدعم القضيّة الفلسطينيّة بشكل مركّز، ولإدانة الصهيونيّة بأكثر من الكلام وللقيام بالدعوة لحملة مقاطعة لكيان الاحتلال ككيان استعماريّ إحلاليّ أساسا، ونظام تمييز عنصريّ ثانيًا.

الأصوليّة الدينيّة

لكنّ المعاناة الرعائية بسيطة مقارنة بالمعاناة من الأصوليّات داخل الكنائس. فما قلناه فوق حول إمكانيّة الحوار بين الكنائس غير مطروح عند البعض لأنّ وجود كنائس غير مطروح. فعند الأرثوذكس مثلا، بعض الجماعات التي تحتوي على وكهنة ورهبان يعظون ويعلّمون رعايا بكاملها، ترى أنّها محافظة على الإيمان الأصيل عندما تعتقد أنّه لا يوجد كنيسة ليسوع المسيح إلّا الكنيسة الأرثوذكسيّة، وأنّ كلّ شيء آخر لا يمكن القول عنه أنّه كنيسة، بل هو مجرّد جماعات لا يمكن اعتبارها كنيسة لجال من الأحوال. و«الحوار» الوحيد الممكن معها هو أن ندعوها أن تصبح أرثوذكسيّة. هكذا ببساطة يمكن لإنسان بكلّ صفاء ضمير أن يعتبر أنّ جماعته هي الكنيسة كلّها وأنّه لا يفعل سوى الحفاظ على العقائد السليمة، ولا يخطر له وولها على بال أنّه ولو كانت تلك العقائد سليمة لربّما كانت التوجّهات العقيديّة في الكنائس الأخرى ذات مغزى يمكن أن يعلّمه شيئا من الخبرة مع الله، أو يريه وجها ليسوع لم يره من قبل، أو أنّه حتّى دعوة الناس إلى التزام رؤية عقيديّة تفترض الحوار أساسا أي حركةً نحو الآخر ومعه، وليس الجلوس والطلب منه أن ينصاع لرأيي، وقبل كلّ ذلك لا يمكن لحوار أن يبدأ مع طرف لا يعتقد بمسيحيّة الطرف الآخر، هذه إهانة وفوقيّة لا يرضاها أيّ عاقل. ما يسرّ - حتّى اليوم- في الكنيسة الأرثوذكسيّة أنّ هذه المواقف المتزمّتة المغلقة والمكتفية بذاتها وتراثها، ليست هي مواقف الرسميّين في الكنيسة الأرثوذكسيّة الأنطاكيّة الذين ما يزالوا يتعاطون الشأن المسكونيّ والحوار بين الكنائس رغم تمسّكهم بالعقائد الأرثوذكسيّة وخاصّة تلك التي برزت في الألفيّة الأولى قبل الانشقاقات.
كلّ العقائد كانت تسعى للحقيقة، أو لما يمكن أن نختبره ونراه من الحقيقة، والحقيقة الأولى هو هذا الإنسان أمامي وخلاصنا معًا، والحقيقة الأخرى هو محدوديّتي ومحدوديّة كلّ جماعة بشريّة في الاستحواذ على كامل الحقيقة لأنّ حقيقة يسوع هي دائما أمامنا وليست بين أيدينا، والله يتجاوز العقائد التي وضعناها حوله (مُجبرين) بقصد التبليغ والتعليم. من هنا، الحقيقة نفسها تفترض أن نصغي لحضور يسوع في الآخر، وللتمحيص سويّة في المعاني التي غابت علينا عند الآخر لأنّنا لم نختبرها من الداخل، وللحوار الجدّي والمنفتح إلى يسوع الذي يخاطب الجميع، ويخاطب مَن هم خارج المسيحيّة الرسميّة أيضًا.

الكنيسة جسد المسيح والكنيسة المؤسّسة

حول هذه النقطة الأخيرة لا بدّ من إيضاح. صحيح الكنيسة هي جسد المسيح، وكلّ كنيسة في نفس الوقت هي مؤسّسة أرضيّة عليها أن ترعى شؤونها فتعرف مَن هم أعضاؤها وم من هم كهنتها وقساوستها ومَن هم مطارنتها ومدبّريها، ومَن هم أعضاء مجالس رعيّتها، وما هو رقم حسابها في المصرف، إلخ مِن حيث هي مؤسّسة أرضيّة، الكنيسة مضطرّة أن تضع تعريفا لمَن هو أو هي ضمنها ومَن هو أو هي خارجها. ولكنّ ما من جماعة بشريّة يمكنها أن تدّعي أنّها تعرف كامل جسد المسيح، إذ كما يقول خومياكوف الكنيسة الأرضيّة «ليست هي ملء وكامل الكنيسة الكلّية التي عيّن الربّ ظهورها يوم دينونة الخليقة كلّها. الكنيسة الأرضيّة تعمل وتعلم فقط ما هو ضمن حدودها... ولكن هي لا تحكم على بقيّة الجنس البشريّ، ولا ترى أنّهم مُقصون، أي غير منتمين

إليها، سوى هؤلاء الذين يريدون إقصاء أنفسهم. بقيّة الجنس البشريّ، أكان غريباً عن الكنيسة، أم متّحداً معها بروابط لم يُرِد الله أن يكشفها لها، تتركه [الكنيسة الأرثوذكسيّة] لحُكْم اليوم الأخير»[١] .

وحتّى بالنسبة لغير المسيحيّين الرسميّين يقول المطران خضر «لقد كشف المسيح إبنِيّة الإنسانِ لله. هناك من يعرف ابنيّته، وهناك من لا يعرف. هل يبطل هذا أن يكون ابنًا؟ هناك افتراض ايمانيّ أسوقه هنا بشكل سؤال: هل يكشف المسيح نفسه لكل ميت من بني البشر ليتحقق قوله: «لا يأتي أحد الى الآب الاّ بي»؟ في هذا لم ينزل علينا شيء من السماء. ولكن اعتقادي أن المسيح الظافر يحتضن كلّ من توفّاه الله، كل نفس مات صاحبها. لست أتعرّض الآن الى إقرار لم يرد في الإنجيل. هل يخلص الإنسان الى اي دين انتمى؟ هنا يدخل الرجاء، رجاؤنا أن المسيح يتخطى كل انتماء روحيّ في الأرض ليجمع ابناء الله من كل الحظائر الى أبيه. «لي خراف ايضا ليست من هذه الحظيرة». انا لم أتكلّم عن مساواة كل الأديان في الحقيقة. رجائي أن تتغلّب محبة الله على كل الحدود لأن الله محبة. الله لا ينقض ما قاله. ولكن هل ما أعلنه هو كل الإعلان أم أن حنانه هو كلمته الأخيرة ولو قلت ان قول مسيحه: «لا أحد يأتي الى الآب الا بي». لو قلت كلام يسوع نسبيّ وليس مطلقا أكون قد كفرت. ولكن كلامه مرتبط بسر موته وظفره بالموت اي انه ينبغي أن نقرأ كلام المعلّم على ضوء هذا الذي حدث وعلى ضوء الغفران لكل بني البشر»[٢] .

لا الأرثوذكس، ولا المسيحيّون يمكنهم أن يدّعوا احتكار الخلاص، بل لا يمكن لإنسان منهم أن يعلم إن كان منتمياً بالفعل إلى كنيسة المسيح، إذ كثيرون من الأوّلين هم آخِرون والآخِرون أوّلين (متى ٢٠: ١٦)، أو كما كان يقول المعلّم أوريجنّس «كثيرون ممّن هم في الخارج هم في الداخل وممّن في الداخل هم في الخارج».

١ T. WARE, The Orthodox Church, London, Penguin Adult ,1997 p. 308

٢ المطران جورج خضر، «المسيح الوسيط»، صحيفة النهار، ٢٩ أيّار ٢٠١٠، السنة ٧٧، العدد ٢٤٠٥٧